حقائق تاريخية

عن

دمشق وحضارتها

« تتمة المحاضرة التي نشرت في الجزءين الاخيرين من السنة الاولى »

« في صفحة ٣٤١ و ٣٧٠ »

٥ – حضارتها وعمرانها

لقد اسس حضارة دمشق اللوديون أو الروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والآشوريون والبابليون والماديون (الفـــرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الأمم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشاغور (الصغير) والغوطة وقطنا حتي ودمر بمعنى تاماراي الاله القادر فينيقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على أن الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنـــة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة[1] كانت حضارتهم اساساً لما بعدها لانهم استبحروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيهـــا الابنية الضخمة منها « هيكل رامون[2] » ونحتت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك ياقوت في معجمه والارمنازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل .

---

(١) من سنة ٤١ – ١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١ – ٧٤٩ م (٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سوريا ولا سيما الفينيقيين والآراميين بعباداتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الأساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة [1] » فكان الفينيقيون يعبدون عَلْيُون وهو زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما كرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و (بسيمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المتنصرة ومعظمها كان من غسان وقضاعة واياد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورممت إلى أن احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من رونقها القديم طعمة للنار فرممت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القيمرية) وهي على ما يلوح لي بقية كلمتي (ايكوز – ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الأموي) أيضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة أيضاً إلى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد أو دير صليبا مقابل باب الفراديس ودير مران ودير هند ودير إيا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون في وادي بردى الغربي

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في

---

(١) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة يشتمل على تاريخ وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الزقاق إلى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخربوا ابنيتها وغيروا اسماء مدنها[١] بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في زمن الدوله الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها أول النقود العربية بزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ « دار الترجمة » وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب وأوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت إلى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق[٢] . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشتغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : تقولون وتقولون وفي

(١) لقد مر بنا في القسم المنشور في السنة الماضية من تسميات الفرس «جلق» و«جوبر» صفحة ٣٤٦ و ٣٤٩ وبقيت اسماء كثيرة منها اسم « الزبداني » ومن رأي صديقي الأستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي « سيب » بمعنى رائحة التفاح و « ستان » محل أي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب : من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من سنة المجلد الأول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس .
وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالت عليه الحرائق فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .

ولقد شيد الوليد أبنية اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية) ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدوها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار ابنه مسلمة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحوّلت الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمنيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال اي السيوف وهم مشهورون بها فاتقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل . ولاتزال محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي من اسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال ان بني (بولاد) الاسره المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبقي الدمشقيون متفوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر فامات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان العجم كان أهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملوّن المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرية ابدع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء أي جوهر الزجاج واتجر بها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره من صناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وأدق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخافت تدمر (ملكة البر) واشتهرت بنتاج أرضها الخصيبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمع الحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها إلى ان فتحت ترعه السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت للامويين مجالس ادب مـــع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادبهن الرائع في ذلك العصر وبينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينة ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنـــين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلها . فكانت له الآراء السديدة . ورابعة العدوية المشهورة بزهدها وبرها وادبها الى غيرهن ممن كانت بيوتهن مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقتـــه بها . على انه لما اضطرب حبل الامويين بظهور السفاح العربي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فمحا كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى نقل دواوينه اليها ثم نقض ما ابرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدثت له في الغوطة ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له الملك : ماتصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقـــال العقيقي : هي لاقوام كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها . فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فتغيروا على سيف الدولة . وكاتبوا كافوراً يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة وتنافسها في التجارة وتقف في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامويين الذين شيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتقهقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسهـــا السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فاسست فيها المدارس الكبيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمستشفيات والمياتم واختلف إليها العلماء والأطباء والصيادلة. حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعاً والحديث ثماني عشرة والشافعية سبعاً وخمسين والحنفية احدى وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية أربعاً والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدليته . وبين تلك المدارس تسع أسستها فاضلات النساء من المالكات والأميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والخوانق والزوايا والمستشفيات . مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشامخة . وأنشئت المكاتب الغاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبغ منها العلماء والشعراء والأدباء والمؤلفون على اختلاف أزمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وأمراء رفعوا اعلام حضارتها بأبنية منيعة مثل الملك الظاهر والعادل وتنكز والاشرف ومصطفى لالا باشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي أولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجراكسة الذين أولهم الظاهر برقوق والعثمانيين الذين أولهم السلطان سليم وأمراء القيمرية كلهم يحبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الأمراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا المكاتب فكان منهم بضعة عشر والياً في أنحاء سورية ولا تزال اثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار أسعد باشا وبعض أبنيتهم وكتب المكتبة الظاهرية المطرزة بأسمائهم وأوقافهم .

واشتهر بين الدمشقيين من أرباب الصناعات الأخرى والحذق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار أعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن أبي اصيبعة في كتابه (الحكماء) مهذب الدين أحمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك فخر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الأموي في دمشق . وممن ذكرهم غير ابن أبي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الأبراج الصليبية في حصار عكاء .

ولقد انتابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفتوق وغيرها من النكبات فمحت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا أريد اظهاره احتيج إلى نسف الأماكن وتقويض الأبنية لاستثارة دفائن مجدها القديم . ويكفيها انها كانت آية البناء الشرقي قائمة على أجمل طراز هندسي أشبه بمدينة تدمر الشهيرة أيام عمرانها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويخرقها من الشرق إلى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية إلى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الأعمدة الضخمة وبين الواحد والآخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الأعمدة بين البيوت ومنها اثنان في باب جيرون (النوفرة) إلى يومنا . ولما حفر أساس الثكنة في حي النصارى الممتدة إلى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار أعمدتها . وكذلك شارع طويل تحت الأرض من مأذنة الشحم إلى الباب الشرقي بأعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الأموي في قلب المدينة وحوله سور له أربعة أبواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك أعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية أبواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في أوصافها جنة خلد زاهيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

وكانت سوق باب البريد أجمل أسواق المدينة عمر في وسطها مراد باشا قبة جميلة قائمة على أعمدة عظيمة عليها كتابات وأشعار بالعربية والكوفية :

ووصف مؤلف محاسن الشام أبواب المدينة بقوله : وغالب هذه الأبواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأقفلت الأبواب ، يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم .

وأمام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ أرسلان بيت (نعمان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره أربعة أبواب ضخمة منحوتة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعمان هذا كان ابرص أو مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له : عندي ابانة (بردى) وفرفراي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد إلى بلده . وفي داخل الباب الشرقي مجذمة (القماطلة) المسيحيين أيضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعطل) أو (مقلعط) وهي الحظيرة الآن .

وفي أحياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخلية وكتابات كثيرة ولا سيما حول الجامع وفيه . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن أهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول بضبط واتقان فتدور المياه باقنية وانابيب ناقذة من دار الى اخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة تفريع المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه متفرعة من سبعة أنهر هي أقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه .

وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصافير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من أبواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياه في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحصار فضلاً عن أبراجها وقلعتها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن القفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة وغيرها .

ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحفة هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها .

وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وأبواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١ هـ بزمن ولاية الأمير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها وأقفرت وخلت الغوطة من فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين أبطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عاتق السكان فجدد عمرانها بعودتهم إليها .

أما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من متنزهات الدنيا الأربعة فكان عدد بساتينها في القرن الثامن مائة وواحداً وعشرين ألف بستان كما ذكر شيخ الربوة في كتابه على انها لا تتجاوز اليوم الألفين عداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير مغنى على وجه الأرض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فحبذا لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار . وكان ارتفاع دمشق سنة ٢٠٤ هـ ثلث مائة ألف وستين ألف دينار . وفي زمن المأمون كان خراجها أربع مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

فلقد كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من أسباب تأخر زراعتها واعراض المواطنين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسر معلومة انقرضت أو أهملتها من أهم الضربات في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم أن التجارة تقوم بجناحيها اللذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق إلى رفع شأن أسباب العمران فنعيد إلى هذه المدينة القديمة مجدها أو شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية وأرباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدنية الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى اسكندر المعلوف